الفصل العاشر
أمينه عبدالله الحمود

إهداء

إلى والدي دفء الشتاء وأمان الحروب
وإلى أمي التي أفنت عمرها في سبيلي
إلى أخي.. روح الحياة والسند
وإلى أختي.. موطن قلبي

****

الليل في غربتي

قبل سنوات قليلة كنت أنتظر حلول الليل لأرقُدَ بسلام
كان يبعثُ لي بنسائمَ الهدوءِ والارتياح
لكن اليوم أكره قدومه لما يحتويه في جوفه من تفاصيل
موحشة وحنين للماضي وللأصدقاء والأقارب
كنتُ طفلة... أنتظر والدي في المساء عند عتبة بيتنا
لأستقبله بحفاوة وأسأله عن المأكولات الشهيّة التي جلَبها
كعادتِه
استقبلني بابتسامته المعتادة عانقني بشدّة وكأنّه منذ
سنوات طويلة لم يراني سمعتُه يقول لي حينها: اشتقتُ لك
يا شآم
نظرتُ لأبي بدهشةٍ لربّما أخطأ في اسمي قاطعَ شرودي
صوتَ أمّي المضطرب: ياسمين كم أنتِ مشاكِسة نبهْتُك
كثيراً ألا تظهري من المنزلِ وحدك، نمت في تلك الليلة
والدموعُ ملأ جفوني لربّما توبيخ أمّي لي كان بدايةَ الليالي
المفزِعة، في بضعِ ساعات سمعتُ صوتًا أشبه بالرّعد وكيفَ
يكون رعداً ونحن ما زِلنا في فصلِ الصّيف، كادَ سقفُ
بيتنا أن يسقط من عزمِ الصوت كان ذلك الصوت انفجاراً

مدويّاً موقعه في مدينتي وضرره في قلبي الذي تهشّم من الداخل

نهضتُ من سريري وشيءٌ من القلق قد انتابني، أتاني أبواي واحتضناني ولا أسمعُ منهما سوى: اللّٰهُمَّ لطفك، اللّٰهُمَّ رحمتك

مضت هذه الليلة وأصبحت شيئاً روتيني بالنسبة لنا كنت أرى الحزنَ والتحسر على الوضعِ المسيء في عيونِ أبي وأمّي، لكنّني قط لم أفهم شيئاً مما يحدث، بل فهمت شيئاً واحداً فقط وهو الحب الذي كدت أفتقده بسبب شعور الخوف

لكنّني اتخذْتُ من مشاعرِ جارِنا الجيّاشة سببًا لوجوده في كلّ صباح أذهبُ لشرفة بيتنا لأراه يحمل وروداً كهدية لخطيبته التي شغفها حبّاً، فأنظرُ لهما وأبتسم، اختفت بسمتي حين رأيتَه مُلقى أرضاً والدماءُ تسيلُ من رأسه وحبيبته تركضُ نحوه صارخةً باسمه، أهالي الحيّ في جواره يقولون: لا حول ولا قوة إلا بالله... إنّا لله وإنّا إليه راجعون

أفاقني من صدمتي صوت أمّي، أخذتني بذعرٍ إلى غرفتي استلقيتُ على سريري ودموعي بلّلت وسادتي

أتساءل؟ لماذا بَدت لي الحياة بائسة
بالأمس كنت أظنّ أنّ الأمل موجود بوجودهما، حسبته الأمير الذي سينتصرُ على هؤلاءِ الأشرار الذين يخيفونني كل يوم ويضع أميرته خلفه على حصانه الأبيض ويمضي والحضور حولهم يصفقون بحرارة وتنتهي تلك الآلام ونغدو سعداء
لكنّه مات وأصبح كل شيء تخيلتُه هباءً منثورًا، والحب صار يبدو مرعباً، بعد تلك الحادثة المؤلمة التزمت مخدعي وتجردت من حسّ الطفولةِ والشّغب، صرت أبحث عن الأمان وحسْب دون الدُمى واللّعب والمأكولات اللذيذة، أصبحت الحياة في نظري لا تطاق، والداي حاولا بشتى الطرق أن يخرجاني من تلك الحالة لكن بلا جدوى لا يزال الليل مفزعاً ولا زلت أعاني إلى هذه اللحظة

****

صدى الذكريات

وفي سُكونِ اللَّيلِ الَّذِي يَحمِلُ فِي طيّاته غَضبًا وعِتابْ
أَرَى أطيافُك، مَرَّتْ فِي خَاطِرِي ذِكْرَى لَك وصَداها اِقْتَحَم مسمعي، طاوعْتُ ضَعفِي وذهبتُ إلَى صَفْحتكَ الشَّخْصِيَّة الَّتِي لَمْ أَدخُلْ عليها منذُ وقتٍ طَويل، بَدَأَت يَدايَ ترتجِف عِنْدما حاولت كتابة الِاسم لكنَّني أَتممْتُ ما قدْ نويتُ عليه
كُلّ المُستجدّات كانتْ عَلى ما يُرام، لا أَدْرِي هَل اطمأننتُ عليك
أَم شعرتُ بالحُزن والأسى لأَنَّني ما لاحَظتُ فِي منشوراتك شَوْقًا لِي، كما فِي صفحتي الَّتِي أَصبحَتْ مكاناً أَضَعُ فِيه آلامي وأشعاري وغرامي لك، والنُّدَب الَّتِي اقتَرفتُها منك صارت واضحَة لِلجَمِيع.
كُنت أَرْغَب بتهنئتك علـى الإنجازات الْعَظِيمَةِ الَّتِي فَعلْتها في غِيابِي، فأَنَا أولى بِأَنْ أفرَح لك مـن متابعيك، لأَنَّهُ لَا أَحد يُحبّك بالقَدرِ الَّذي أحببتك فيه
تَذكَّرت كلماتك الَّتِي لطالما سُرِرت بِها فِي الْمَاضِي

عِنْدما قُلت: أَنت مَصْدَر إلهامي، وإِنّي أؤمِن تَمَامًا أَنَّ وَرَاءَ كُلّ رِجُلٍ عَظِيمٌ امْرَأَة ... وَأَنتِ المرأَة الَّتِي وَرائِي.

سَرحت بِها وَحاولت مواجهتك بأقاويلك الكاذِبَة

ولكن لَا أستطيع، عندما خذلتني... ارْتديتُ قِناع القُوَّة واللامبالاة وَمضيْت

كَيلَا تتلذذ بضعفي وقلّة حيلتي

وكي أَبْقَى كذلك لا يتوجّب عليّ معاتبك قَطْعًا

فما كانَ عليّ إلَّا الاتّكاء على رَفيقُ جروحي «قَلَمِي»

****

كبرياء أُنثى

خطرتَ على بالي فاستبشرت بمجيئك
سمعت صوتك بخيالي فظننت أنه حقيقة
لطالما تأثرت بتلك الآية:
﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾
رائحةُ الفرجِ لا تُخطِئها أنوفُ الموقنين لكنّك لن تنال ثقتي
ليتحقق مرادي
لماذا؟!
أحرامٌ على قَلبي أن يحبّ قلباً يهواه، أم كتب عليه الذّل
والهوان
أكثير عليَّ مطْلبي؟
أعرف جيداً ما هذه الأصوات التي تثور داخلي، وأميّز
دقات قلبي هذه تمامًا رغم كل شيء يحيطها من تشتت
أرغب بأن أميل على كتفك وأشكو لك منك، فتغمرني
فأنظر إليك فيسيل دمعي فتمسحه، فأقول لك أني أحبك
فتقبلني فبها أعرف إجابتك!
أعرف أن هذه المشاعر وهذه الأماني لن تمضي
ولكنّني أقدّس كبريائي وعزّة نفسي

لن أدعْك تستهين بقلبي وشعوري وأشعاري
فأنا ابنة المصاعب والأزمات، أستمّد قوتي من ضعفي
وما هي تلك الوعكة التي أمر بها إلّا عشاء أعده كعادتي
وينال إعجاب الجميع سواي، وفي كل الأحوال...أنا الغالبة

****

قلبُ عقل

ذبُلْت وأسفلَ عيني ظلمةً أشدُ من الليل من سهرٍ، وتعبٍ، وعناء
جفوني في معارك مع النوم منذ هجرك لي
فأيّ طبيبٍ يمكنُه أن يسعفني في تلك الأوقاتِ العصيبة
فالثِقَل الذي أرْسى على روحي أطفأها
حياة رماديّة ... وأيّام مملّة
أي أن الألوانَ المُبهجة للحياة بدَت باهِتة لا هدف منها.
أمّا عن الروح فمتلوّعَة بك ترفض جميع أنواع الاستسلام
تركض وراءَ أوهامٍ لا أساس لها
يعتريها شعور أنّه لا سبيل لك إلا العودة ولا سبيل لها إلا العتاب ومن ثم الصّفح عنك، هكذا هي حالي من بعدك...
تناقُض ومعارِك بين القلب والعقل
أحدهما يريدك والآخر يرفضك
حاولت البحث عن الأسباب لكل هذا العذاب الذي
ألقيْته عليّ

فوجدتُ أنّه لربّما فُرصي الكثيرة زادتْك طمعاً بصبري فلن تبالي بقلبي الذي فتّته وجعلْته رماداً يدْعَس عليه قليلي الشأن والاعتبار

ها هو الليل قد حلّ، وها أنا كعادتي أحملُ نفْسي وألتزم سريري أحتضنُ نفسي وأهرَع بالبكاء

ليس لي سوى هذا المنْفس الوحيد، أفرغ فيه لحظات ضعفي وانكساري.

****

أحببت قاتلي

كيف لك أن تتجرأ على فعلِ كلّ هذا بي
من أينَ أتيتَ بكلّ هذه الأقنعة اللّعينة
أنسيت حديثكَ لأَبي عندما جئْتَ طالباً يدي
قلْتَ له أنّك ستكون المُؤنِسَ لوحْشتي ورفيق دربي، ظلّي وشريك همّي
أيُرضيكَ ما فعلْته بي من كسرٍ وجرحٍ وما خلفْتَه وراءَك من ندَب؟!
وأنا التي أحببْتكَ بكلّ ما أوتيتُ به من مشاعرٍ وأحاسيس
زعمْتُ أنّني سأهدأ وستنطَفِئ ناري عندما تغابيت وصفحت
عندما قلتُ لنفسي أنّها أيّام وستمضي
نسيتُ أنّها ستمضي من عمري الذي أفنيتُه كلُّه في سبيل
كلمةٍ أسْمعُها فأسانِد نفسي بِها وأبْني أحلامي عليها
شيءٌ ثقيلُ الوزنِ ضاغطٌ على قلبي بشدّة، كاتمٌ على نَفَسي
أنت غرزْتَ النَّصْلَ فِي جَسَدِي المُنهَك
وَمَا كَان ليقْتُله

مَا الذَّنب الَّذِي ارْتَكبته لأشتمّ رَائِحَة الموْتِ ولا أَنَالُهُ
وَبما آذَيْتُك لتدعسَ عَلَى بَقايَا حِطامي وتتلذّذُ بِسَمَاعِ
صَوت فُتاتُه
كنْ على ثِقة أن الوَجع الَّذِي تسبَّبتَ بِه جَرَحَنِي لَكِنَّهُ لَمْ
يَقْتُلْنِي!
أَنْت ذبحْتَني عِنْدَمَا نَظَرْتَ لحالي بشفقة.

****

قلبي العتيق

سرْتُ الطَّريق قاصِدة إيَّاك... أَلف شعورٍ دخِلي
اللهفة والحنين والشَّوق.. قَلبي يَخفِقُ فِي باطني
كل خفْقة مِنْه تنادِي باسمك...علّك تستجيب وأراك
راحتْ ذاكرتي تفيض بذكرياتنا الماضية منذ لقائنا الأول
تذكرت تلك اللّحظة التي خطفت قَلْبي.. تلك اللّمعة التي
رأيتها بعينيكَ الكامدتين، عندما نظرْتَ إلي أَنْعشت قلبي
المُنطفِئ... وابتسامتك جعلته يرقص فرحًا مؤهلاً
ومسهّلاً بالحُبّ القادم إليه
الظُّروف تغيّرت!
وما زالت تفاصيلك وذكرياتنا على حالها منذ أَن وَدَّعتني
حتى الكلمة التي خرجت من بين شفتيك لا زلت
أحتكرها
وَأَنْسُب ملكيْتها لك، لَا شيء تغيّر سِوَى تراكم الغبْرة
على قلْبي العتيق المُمتلِئ بِك، الَّذِي حرَّمَ الحبّ على نفسهِ
مِن بعْدك
هذه العضلة الضَّعيفةِ في أَيْسَر صدْري ترجوك أَن ترحمها
بعوْدة أَوْ رُبَّمَا عناق أَو أقلَّهُمَا خَبر وسؤال

دعْها (أي العضلة) تشعر ليومٍ واحدٍ أَنَّهَا لا زالت تنْبض
ولها وجُودها وكيانُها لأنّ قلبي لَجَّ به الشَّوق تائِقًا، يَحنُّ إلَى
تلك النَّظْرَة الَّتِي أَعادت لَه الحياة المبهجة مِنْ جَدِيدٍ
لقد شاخ القلب وَهُوَ يَنتظرُ حُضْناً عَمِيقاً.. حُضْناً كلُّه
أَمَانٌ
كلُّه اسْتِسْلَام لحنانك ودفئك
يَا صَاحِبَ الْمُقْلَتَيْن الساحرتين!!
هناك قلب سائلٌ يَقْصدهَا.. فمتى الإجابة؟

****